

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(المُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ)

مِنْ مَادَّةِ

شَرْحِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ

www.menhag-un.com

طَائِفَتَانِ ضَلَّتَا فِي الْقَدَرِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمَا

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ ضَلَّ فِي الْقَدَرِ طَائِفَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: الْجَبَرِيَّةُ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْعَبْدَ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلِهِ وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ.

الثَّانِيَّةُ: الْقَدَرِيَّةُ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ فِي الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَلَيْسَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ فِيهِ أَثَرٌ.

* قُلْتُ: وَمَنْ هُجِ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَالْجَمَاعَةُ فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ وَسَطٌ بَيْنَ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُنْحَرِفَتَيْنِ، إِيْمَانُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ بَيْنَ الْجَبَرِيَّةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الْأُولَى (الْجَبَرِيَّةِ) بِالشَّرْعِ وَالْوَقَاعِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً وَمَشِيئَةً، وَأَضَافَ الْعَمَلَ إِلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] الْآيَةِ.

وَقَالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

* قُلْتُ: فَهَذِهِ بَعْضُ دَلَالَاتِ الشَّرْعِ عَلَى هَدْمِ هَذِهِ الْمِلَّةِ الْبَاطِلَةِ، وَالنَّحْلَةِ الْفَاسِدَةِ، وَهِيَ مَا اعْتَقَدَهُ الْجَبَرِيَّةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْعَبْدَ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلِهِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِرَادَةٌ، وَلَا قُدْرَةٌ، وَقَدْ أَثَبَتَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً، وَمَشِيئَةً، وَأَضَافَ الْعَمَلَ إِلَيْهِ، وَهَذَا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَمَّا الْوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ أَفْعَالِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي يَفْعَلُهَا بِإِرَادَتِهِ كَالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَبَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالْإِرْتِعَاشِ مِنَ الْحُمَّى، وَالسَّقُوطِ مِنَ السَّطْحِ، فَهُوَ فِي الْأَوَّلِ فَاعِلٌ مُخْتَارٌ بِإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ جَبْرٍ، وَفِي الثَّانِي غَيْرُ مُخْتَارٍ وَلَا مُرِيدٍ لِمَا وَقَعَ عَلَيْهِ.

وَالرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ (الْقَدَرِيَّةِ) بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ:

* قُلْتُ: كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ يُخْطِئُ فِي تَنْزِيلِ الْأَسْمِ عَلَى الْفَرْقَةِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عِنْدَمَا يَسْمَعُ لَفْظَ الْقَدَرِيَّةِ يَتَّجُهُ ذَهْنُهُ إِلَى أَمْرِ مَوْهُومٍ، وَلَيْسَ بِوَاقِعٍ، وَهُوَ ظَنُّهُ أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ بِقَدَرٍ، هُوَ لَا هُمْ الْجَبَرِيَّةُ.

وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ فَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ الْأَمْرُ أَنْفٌ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ فِي أَعْمَالِ عِبَادِهِ أَثَرٌ، بَلْ يَقُولُونَ -تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا-: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ حَتَّى يَفْعَلَهُ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقَدَرِيَّةُ، وَأَمَّا الْجَبَرِيَّةُ فَالَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ الْعَبْدَ مَجْبُورٌ عَلَى فِعْلٍ مَا يَفْعَلُ، وَأَنَّهُ لَا مَشِيئَةَ لَهُ، وَلَا اخْتِيَارَ، وَلَا إِرَادَةَ فَصَحَّ هَذَا.

وَالْقَدَرِيَّةُ يَقُولُونَ إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ لَا تَقَعُ بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، يَقُولُونَ: إِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ فِي الْإِرَادَةِ، وَالْقُدْرَةِ، وَلَيْسَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ فِي ذَلِكَ أَثَرٌ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَمَّا الشَّرْعُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَائِنٌ بِمَشِيئَتِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ تَقَعُ بِمَشِيئَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَفَعَلْنَا مَنَّا آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنَّا كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنْسَانُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ فَهُوَ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُمَكِّنُ لِلْمَمْلُوكِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مُلْكِ الْمَالِكِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

* قُلْتُ: وَأَمَّا مَذْهَبُ الْقَدَرِيَّةِ فَلَا زِمُهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ: أَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ بِعَبْدٍ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ سَيِّدٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَأْتِي مَا يُرِيدُ، وَهَذَا لَيْسَ صَحِيحًا لَا عَقْلًا، وَلَا حِسًّا، وَلَا فِطْرَةً، وَلَا نَقْلًا.

لَمَّا فَرَّغَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنْ بَيَانِ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ انْتَهَى بِذَلِكَ مِنْ بَيَانِ الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ مَرَاتِبِ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ سَاقَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الدَّلِيلَ عَلَى الْأَرْكَانِ الَّتِي سَاقَهَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ:

الدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ السِّتَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَهَذِهِ الْآيَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى خَمْسَةٍ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ دَلِيلَ الْقَدَرِ فَقَالَ:

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وَهَذِهِ الْآيَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ فَهَذِهِ سِتَّةُ أَرْكَانٍ.

«وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ فِي هَذِهِ

الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ اسْتَنْكَرُوا تَحْوِيلَ الْقِبْلَةِ وَجَحْدُوهُ مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ.

فَأَخْبَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنَّ الْبِرَّ، - وَهُوَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ خَيْرٍ - أَنَّ الْبِرَّ لَيْسَ فِي تَوَلِيَّةِ الْإِنْسَانِ، وَجْهَهُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمَا ذَكَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْخَيْرِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾ جِهَةً مِنَ الْجِهَاتِ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ مِنَ اللَّهِ، ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ طَاعَةُ اللَّهِ إِذَا أَمَرَكُمْ بِأَمْرٍ، وَجَبَ عَلَيْكُمْ حِينَئِذٍ امْتِثَالُهُ، وَالْعَبْدُ الصَّادِقُ هُوَ الَّذِي يَدُورُ مَعَ أَوَامِرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ دَارَتْ لَا يَعْتَرِضُ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» (١).

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا﴾ الْبِرُّ بِالنَّصْبِ خَيْرٌ مُقَدَّمٌ لِـ(لَيْسَ)، وَ(أَنَّ) وَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي تَأْوِيلِ مَصْدَرِ اسْمِهَا مُؤَخَّرٌ، وَالتَّقْدِيرُ: (لَيْسَ الْبِرُّ تَوَلِيَّةٌ وَجُوهَكُمْ).



الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ: الْإِحْسَانُ وَتَعْرِيفُهُ

قَالَ الشَّيْخُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ: الْإِحْسَانُ، رُكْنٌ وَاحِدٌ وَهُوَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٣١٧) الَّذِي يَرِنَاكَ حِينَ تَقُومُ (٣١٨) وَتَقْلِبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ (٣١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] الْآيَةُ.....

* قُلْتُ: «الْإِحْسَانُ فِي اللُّغَةِ: إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَإِتِمَامُهُ، مَاخُودٌ مِنَ الْحُسْنِ، وَهُوَ ضِدُّ الْقُبْحِ» (١).

الْإِحْسَانُ فِي الْأَصْلِ نَوْعَانِ:

إِحْسَانٌ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا.

وَإِحْسَانٌ فِي حُقُوقِ الْخَلْقِ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

(١) «شَرْحُ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ» لِلشَّيْخِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ الْقُوزَانِي (ص ٢٢١).

- إِحْسَانٌ وَاجِبٌ: وَهُوَ أَنْ تَقُومَ بِحُقُوقِهِمُ الْوَاجِبَةَ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ، كَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِنْصَافِ فِي جَمِيعِ الْمُعَامَلَاتِ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا النَّوعِ الْإِحْسَانُ إِلَى الْبَهَائِمِ، ثُمَّ الْإِحْسَانُ فِي الْقَتْلِ كَذَلِكَ، وَفِي الذَّبْحِ كَذَلِكَ، كَمَا أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَمْرِ اللَّهِ (١).

- وَالْإِحْسَانُ الْمُسْتَحَبُّ: هُوَ مَا زَادَ عَلَى الْوَاجِبِ مِنْ بَذْلِ نَفْعٍ مَالِيٍّ أَوْ بَدَنِيٍّ أَوْ نَفْعٍ عِلْمِيٍّ.

وَمِنْ أَجْلِ أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ: الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ (٢).

قَالَ الشَّيْخُ الشَّارِحُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْإِحْسَانُ ضِدُّ الْإِسَاءَةِ، وَهُوَ أَنْ يَبْذُلَ الْإِنْسَانُ الْمَعْرُوفَ وَيَكْفِيَ الْأَذَى، فَيَبْذُلُ الْمَعْرُوفَ لِعِبَادِ اللَّهِ فِي مَالِهِ، وَجَاهِهِ، وَعِلْمِهِ، وَبَدَنِهِ.

فَأَمَّا الْمَالُ، فَإِنْ يُنْفَقَ وَيَتَصَدَّقَ وَيُزَكَّى، وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ بِالْمَالِ الزَّكَاةُ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَمَبَانِيهِ الْعِظَامُ، وَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُ الْمَرْءِ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ أَحَبُّ النِّفَقَاتِ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَيَلِي ذَلِكَ، مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفَقَةٍ

(١) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي (الذَّبَائِحِ، ١١، رَقْمُ ١٩٥٥)، مِنْ حَدِيثِ: شَدَادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِجْ ذَبِيحَتَهُ».

(٢) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِأِلَٰهِي إِلَىٰ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لِلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَآذُنَ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤-٣٥].

لِزَوْجَتِهِ، وَأُمِّهِ، وَأَبِيهِ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَإِخْوَانِهِ، وَبَنِي إِخْوَتِهِ، وَأَخَوَاتِهِ، وَأَعْمَامِهِ، وَعَمَّاتِهِ، وَخَالَاتِهِ إِلَى آخِرِ هَذَا، ثُمَّ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لِلصَّدَقَةِ كَطُلَّابِ الْعِلْمِ مَثَلًا.

وَأَمَّا بَذْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْجَاهِ فَهُوَ أَنَّ النَّاسَ مَرَاتِبٌ، مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ ذَوِي السُّلْطَانِ فَيَبْذُلُ الْإِنْسَانُ جَاهَهُ، يَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيَطْلُبُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ يَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ، إِمَّا بِدَفْعِ ضَرَرٍ عَنْهُ، أَوْ بِجَلْبِ خَيْرٍ لَهُ.

وَأَمَّا بِعِلْمِهِ فَإِنَّ يَبْذُلُ عِلْمَهُ لِعِبَادِ اللَّهِ، تَعْلِيمًا فِي الْحَلَقَاتِ وَالْمَجَالِسِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، حَتَّى لَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسِ قَهْوَةٍ، فَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تَعْلَمَ النَّاسَ، وَلَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسِ عَامٍّ فَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ تَعْلَمَ النَّاسَ، وَلَكِنْ اسْتَعْمِلِ الْحِكْمَةَ فِي هَذَا الْبَابِ، فَلَا تُثْقِلْ عَلَى النَّاسِ حَيْثُ كُلَّمَا جَلَسْتَ فِي مَجْلِسٍ جَعَلْتَ تَعْظُمُهُمْ وَتَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ، وَلَا يُكْثِرُ، لِأَنَّ النُّفُوسَ تَسْأَمُ وَتَمَلُّ فَإِذَا مَلَتْ كَلَّتْ وَضَعُفَتْ، وَرَبَّمَا تَكَرَّهُ الْخَيْرَ لِكَثْرَةِ مَنْ يَقُومُ وَيَتَكَلَّمُ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ بِالْبَدَنِ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «...» وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَائِيهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةً^(١)، فَهَذَا رَجُلٌ تُعِينُهُ تَحْمِلُ مَتَاعَهُ مَعَهُ، أَوْ تَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الْجِهَادِ، ١٢٨، رَقْمُ ٢٩٨٩) وَفِي مَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ فِي (الزَّكَاةِ، ١٦: ٨،

رَقْمُ ١٠٠٩)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: فَإِنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

* قُلْتُ: وَهَذِهِ دَرَجَةُ الْمُشَاهَدَةِ: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)، يَبْعَثُكَ عَلَى أَمْرَيْنِ:

عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ.

وَعَلَى الْإِتْقَانِ فِي تِلْكَ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَتَعَبَّدُ بِهَا لِرَبِّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ الشَّيْخُ الْعِثِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ -أَيُّ عِبَادَةِ الْإِنْسَانِ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ- عِبَادَةُ طَلَبٍ وَشَوْقٍ، وَعِبَادَةُ الطَّلَبِ وَالشَّوْقِ يَجِدُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ حَاجَةً عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ هَذَا الَّذِي يُحِبُّهُ، فَهُوَ يَعْبُدُهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَيَقْصِدُهُ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ ﷻ.

«فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وَهَذِهِ عِبَادَةُ الْهَرَبِ وَالْخَوْفِ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ ثَانِيَةً فِي الْإِحْسَانِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْبُدُ اللَّهَ ﷻ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَتَطْلُبُهُ، وَتَحْتَ النَّفْسِ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ فَاعْبُدْهُ كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرَاكَ، فَتَعْبُدُهُ عِبَادَةً خَائِفٍ مِنْهُ، هَارِبٍ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ عِنْدَ أَرْبَابِ السُّلُوكِ أَدْنَى مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى.

* قُلْتُ: قَالَ النَّوَوِيُّ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمٍ»^(١)، عِنْدَمَا تَعَرَّضَ لِشَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ قَالَ:

(١) «شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (١/ ١٥٧ - ١٥٨).

«وَهَذَا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي أُوتِيَهَا ﷺ؛ لِأَنَّا لَوْ قَدَّرْنَا أَنَّ أَحَدَنَا قَامَ فِي عِبَادَةٍ، وَهُوَ يُعَايِنُ رَبَّهُ ﷻ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُضُوعِ، وَالْخُشُوعِ، وَحُسْنِ السَّمْتِ، وَاجْتِمَاعِهِ بِظَاهِرِهِ، وَبَاطِنِهِ عَلَى الْاِعْتِنَاءِ بِتَمِيمِ الْعِبَادَةِ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ إِلَّا أَتَى بِهِ، فَقَالَ ﷺ: اعْبُدُ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ كَعِبَادَتِكَ فِي حَالِ الْعِيَانِ فَإِنَّ التَّمِيمَ الْمَذْكُورَ فِي حَالِ الْعِيَانِ إِنَّمَا كَانَ لِعِلْمِ الْعَبْدِ بِاطِّلَاعِ الرَّبِّ ﷻ عَلَيْهِ فَلَا يُقَدِّمُ الْعَبْدُ عَلَى تَقْصِيرٍ فِي هَذَا الْحَالِ لِلِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ.

وَهَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودٌ فِي عَدَمِ رُؤْيَةِ الْعَبْدِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ، فَمَقْصُودُ الْكَلَامِ إِذْنُ الْحَثِّ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ، وَمُرَاقِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي إِتْمَامِ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ» اهـ.

فَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مَذْكُورٌ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ نَازِرٌ إِلَيْهِ هَذَا مَوْجُودٌ حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنِ الْعَبْدُ فِي تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَأَنَّهُ يَرَاهُ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانُ مُؤْمِنًا بَيَقِينٍ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مُحِيطٌ بِعَمَلِهِ، وَسِرِّهِ، وَنَجْوَاهُ، وَأَنَّهُ لَا يَغِيبُ مِنْهُ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَيْءٌ، وَلَكِنَّ الْقَصْدَ هُنَا الْحَثُّ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ، وَمُرَاقِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي إِتْمَامِ الْخُشُوعِ، وَالْخُضُوعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.



الْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى غَايَةِ الْحُبِّ وَغَايَةِ الذُّلِّ،
وَمَتَى يَكُونُ إِظْهَارُ الْعِبَادَةِ أَفْضَلَ؟

قَالَ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعِبَادَةُ اللَّهِ ﷻ هِيَ
كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هَمَّا قُطْبَانِ
فَالْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: غَايَةِ الْحُبِّ، وَغَايَةِ الذُّلِّ، فَنَفِي الْحُبِّ
الطَّلَبُ، وَفِي الذُّلِّ الْخَوْفُ وَالْهَرَبُ، فَهَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ وَإِذَا
كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مُخْلِصًا لِلَّهِ ﷻ لَا يُرِيدُ
بِعِبَادَتِهِ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَا مَدْحًا عِنْدَ النَّاسِ، وَسَوَاءٌ أَطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَمْ لَمْ
يَطَّلِعُوا، الْكُلُّ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، وَهُوَ مُحْسِنُ الْعِبَادَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، بَلْ إِنَّ مِنْ تَمَامِ
الْإِخْلَاصِ أَنْ يَحْرِصَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَلَّا يَرَاهُ النَّاسُ فِي عِبَادَتِهِ، وَأَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُ
مَعَ رَبِّهِ سِرًّا، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي إِعْلَانِ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ لِلْإِسْلَامِ، مِثْلُ أَنْ
يَكُونَ رَجُلًا مَتَّبُوعًا يُقْتَدَى بِهِ، وَأَحَبُّ أَنْ يُبَيِّنَ عِبَادَتَهُ لِلنَّاسِ؛ لِيَأْخُذُوا مِنْ ذَلِكَ
نَبْرَاسًا يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ كَانَ هُوَ يُحِبُّ أَنْ يُظْهِرَ الْعِبَادَةَ لِيَقْتَدِيَ بِهَا زُمَلَاؤُهُ
وَقَرَنَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ فَنَفِي هَذَا خَيْرٌ.

(١) «الْكَافِيَةُ الشَّافِيَّةُ» (ص ١٧٩، أُلْبِيتُ رَقْمُ ٥١٤، دَارُ عَالَمِ الْفَوَائِدِ).

* قُلْتُ: وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ يَتَوَرَّطُ فِي هَذَا الْمَضِيقِ فَيَأْتِي مَا يَأْتِي مِنْ إِحْسَانِ الْعِبَادَةِ أَمَامَ النَّاسِ، وَيَأْتِيهِ شَيْطَانُهُ، وَتُوسَّوْسُ لَهُ نَفْسُهُ بِقَوْلٍ: أَنْتَ رَجُلٌ مَتَّبِعٌ مَنظُورٌ إِلَيْهِ فَأَحْسِنْ. فَيَحْسِنُ لِنَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ لَا يُحْسِنُ لِنَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يُحْسِنُ لِنَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ يُوَسَّوْسُ لَهُ شَيْطَانُهُ، وَتُمْلِي نَفْسُهُ لَهُ، وَتُسَوِّلُ: أَنْتَ رَجُلٌ مَتَّبِعٌ يَتَأَسَّى بِكَ وَيُقْتَدَى، أَنْتَ رَجُلٌ مَنظُورٌ إِلَيْهِ.

تَجِدُ مِثْلَ هَذَا الْمُسْكِينِ يُرَائِي فِي خَلْوَتِهِ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: لَا تَأْمَنُ يَا فُلَانُ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ الْآنَ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَنْتَ رَجُلٌ مَتَّبِعٌ مَنظُورٌ إِلَيْكَ، وَالْمُسْكِينُ مَتَّبِعٌ نَعَمْ، وَلَكِنْ فِي هَوَى نَفْسِهِ قَدْ أَرَخِي لَهُ مِنْ عِنَانِهَا وَزِمَامِهَا فَسَارَتْ بِهِ فِي كُلِّ وادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ يَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ يَأْتِي بِالرِّيَاءِ صُرَاحًا، وَبِالنِّفَاقِ قُبْحًا، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مِنَ الْمُخْلِصِينَ، فَاللَّهُمَّ سَلِّمْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَلَا يَكُونَنَّ هَذَا الْخَوْفُ خَوْفًا مَرَضِيًّا، يَعْنِي لَا يَخَافُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الرِّيَاءِ خَوْفًا مَرَضِيًّا فَأَنْتَ عَلَى ذِكْرِ مِمَّا صَنَعَ ذَلِكَ الْفَقِيهُ الْأَحْمَقُ الَّذِي كَانَ يُعَانِدُ الشَّافِعِيَّ، وَيُحَادِّثُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَأْتِي بِالْغَالِيَةِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الطَّيِّبِ الْمَخْلُوطِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَكَانَ يَأْتِي رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْغَالِيَةِ ثُمَّ يَطْلُبِي بِهَا السَّارِيَةَ الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا يَتَحَلَّقُ حَوْلَهُ طُلَّابُهُ فِي الْمَسْجِدِ الْعَتِيقِ مَسْجِدِ عَمْرٍو بِمَضَرَ بِالْقَاهِرَةِ فَكَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَيَتَضَوَّعُ الْمَكَانَ بِرَائِحَةِ الطَّيِّبِ، وَيَأْخُذُ هُوَ فِي دَرَسِ الْعِلْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَأْتِي بِمَا

فَتَحَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ الصَّرَاحِ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ،
وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ.

وَفِي يَوْمٍ شَمَّ فِي الْمَكَانِ رَائِحَةً خَبِيثَةً فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: مَا هَذَا؟ لِيَنْظُرُ كُلُّ
مِنْكُمْ فِي نَعْلِهِ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُوا فِي النِّعَالِ شَيْئًا، قَالَ: لِيَنْظُرُ كُلُّ مِنْكُمْ فِي ثَوْبِهِ،
وَلَا يَأْمَنَنَّ امْرُؤٌ فَلْيَنْظُرْ، فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُوا فِي الثِّيَابِ شَيْئًا، فَأَخَذُوا يَبْحَثُونَ، وَإِذَا
بِذَلِكَ الْفَقِيهِ الْأَحْمَقِ قَدْ طَلَى إِحْدَى جَانِبَيْ شَارِبِهِ بِالْغَائِطِ، وَتَضَوَّعَتْ رَائِحَتُهُ
الْخَبِيثَةُ تَزْكُمُ الْأَنْوَفَ فِي الْمَكَانِ.

فَقَالَ لَهُ الشَّافِعِيُّ: مَا هَذَا؟

قَالَ: رَأَيْتُ كِبْرَكَ، وَأَنْتَ تَتَكَبَّرُ بِطَلْيِ السَّارِيَةِ بِالْغَالِيَةِ بِالطِّيبِ فَأَرَدْتُ أَنْ
أَتَوَاضَعَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَقَالَ الشَّافِعِيُّ لِبَعْضِ تَلَامِيذِهِ: خُذُوهُ فَادْهَبُوا بِهِ إِلَى صَاحِبِ الشَّرْطَةِ فَمَرُوهُ
أَنْ يُعْزِرَهُ؛ لِأَنَّهُ يُدَنِّسُ الْمَسْجِدَ بِهَذِهِ الْفَضَلَاتِ.

فَالْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ سَوِيًّا كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ السَّوِيُّ، الْإِنْسَانُ أَنْ
يَكُونَ سَوِيًّا، هَذَا مِنْ أَشَقِّ الْمَطَالِبِ.

كَثِيرٌ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ يَتَرَدُّونَ فِي الْهُوَّةِ، تَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ أَجْهَلَ مِنْ حِمَارٍ
أَهْلِهِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا يُقَدِّمُ يُصَدَّرُ؛ لِيُدْرَسَ لِبَعْضِ الطُّلَّابِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، وَكَأَنَّهُ
صَارَ شَافِعِيَّ عَصْرِهِ لَا، بَلْ صَارَ أَبَا هُرَيْرَةَ، بَلْ صَارَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، وَمَا يَمْشِي
الْمُسْكِينُ إِلَّا خُطْوَةً حَتَّى يَنْتَكِسَ، وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا.

وَالْأَمْرُ يَسِيرٌ جِدًّا يُمْتَحَنُ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ كِتَابٍ أَنْ نَقُولَ لَهُ حِينَئِذٍ
اِقْرَأْ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَمَامَ الطُّلَّابِ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ
الْعِلْمِ لَا نَقُولُ يَحْفَظُهُ، وَيَحْفَظُ الْمُتَوَنِّ، وَنَحْنُ نَطَالِبُهُ بِأَنْ يَسْتَظْهَرَ مَا حَمَلَهُ عَلَى
ظَهَرِ قَلْبِهِ هُوَ مِنْ ذَلِكَ بِمَبْعَدَةٍ.

الْمُسْكِينُ مَا أَنْ يَتَقَدَّمَ خُطْوَةً حَتَّى يَتَكَبَّرَ هَاوِيًّا عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ فِي الْحَمَاءَةِ
الْمُرْدِيَةِ، وَدَائِمًا تَجْتَهِدُ فِي أَنْ تَقِيسَ نَفْسَكَ بِالْأَيْمَةِ حَتَّى تَعْرِفَ قَدْرَكَ يَعْنِي إِنْ
وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ فَقُلْ: يَا فَلَانُ مَنْ أَنْتَ؟ بَلْ مَا أَنْتَ؟ وَمَا تَكُونُ مَنْ أَنْتَ؟ وَمَا
تَكُونُ مَاذَا تَحْفَظُ؟

إِيتِ بِوَرَقَةٍ بَيِّضَاءَ وَسَوِّدْهَا إِنْ اسْتَطَعْتَ بِكِتَابَةٍ مَا حَفِظْتَ، لَا شَيْءَ سَوِّدْهَا
إِنْ اسْتَطَعْتَ بِالْكُتُبِ الَّتِي قَرَأْتَ ثُمَّ لَخِصْ ذَلِكَ الَّذِي قَرَأْتَ عَدًّا، وَسَرِّدًا لَا
حَقِيقَةً، وَفِعْلًا، وَإِسْهَابًا، وَتَفْصِيلًا، وَإِنَّمَا بَعْدَ أَنْ تَكْتُبَ مَا قَرَأْتَ إِنْ كُنْتَ قَرَأْتَ
شَيْئًا مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

يَعْنِي اكْتُبْ فِي رَأْسِ الصَّحِيفَةِ سُرُوحَ الْحَدِيثِ، فَتَحُ الْبَارِي وَاكْتُبْ شَرْحَ
النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ، شَرْحَ الْعَيْنِيِّ، شَرْحَ الْقَسْطَلَانِيِّ، شَرْحَ الْكِرْمَانِيِّ،
شَرْحَ ابْنِ رَجَبٍ الْحَبْلِيِّ، كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا كَتَبَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الشُّرَاحِ شُرَاحِ الْحَدِيثِ
عَلَى مَتْنِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى مَا هُنَالِكَ مِنْ حَلِّ الْأَشْكَالَاتِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ
بِالتَّرْجَمَاتِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَسَائِلِ الْعَقْدِيَّةِ فِي الصَّحِيحِ! شَيْءٌ كَثِيرٌ يَطُولُ ذِكْرُهُ.

اَكْتُبْ ثُمَّ فَلْتَنَّهُ مَا شِئْتَ، اَنْ تَكْتُبَ شَيْئًا، وَاِنْ كَتَبَ فَنَقُولُ لَكَ: حَسَنُ اَقْلَبِ الصَّفْحَةَ، وَاَكْتُبْ لَنَا مَا حَصَلَتْ مِمَّا كَتَبْتَ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ الْاِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى^(١):

عِلْمِي مَعِيَ حَيْثُمَا كُنْتُ يَتْبَعُنِي صَدْرِي، وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقٍ
اِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِيَ اَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ
وَقَالَ عَلَمًاؤُنَا - عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ - مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ كُلِّ عِلْمٍ لَا يَدْخُلُ
مَعَكَ الْحَمَامَ فَلَيْسَ بِعِلْمٍ، الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَدْخُلُ مَعَكَ الْحَمَامَ لَيْسَ بِعِلْمٍ، اَنْتَ لَنْ
تَدْخُلَ الْحَمَامَ بِالْكِتَابِ بِالْاَسْفَارِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ الْاَبْعَدُ حِمَارًا يَحْمِلُ اَسْفَارًا،
سَيَتَوَرَّعُ عِنْدَ بَابِ الْحَمَامِ، وَيَجْعَلُ الْاَسْفَارَ خَارِجَهَا! كُلِّ عِلْمٍ لَا يَدْخُلُ مَعَكَ
الْحَمَامَ لَيْسَ بِعِلْمٍ يَعْنِي مَا حَمَلْتَهُ عَلَى ظَهْرِ قَلْبِكَ مَا كَانَ غِيًّا فَتَحَ اللهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ عَلَيْكَ بِهِ.

مِسْكِينُ وَاللهِ طَالِبُ الْعِلْمِ! مَا اِنْ نُقَدَّمُهُ اَنْ نُصَدِّرَهُ حَتَّى يَتَصَدَّرَ بِالْمَعْنَى
الشَّائِعِ عِنْدَ الْعَوَامِ.

يَا مِسْكِينُ لَا تَكُنْ سُدَّةً فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، اتَّقِ اللهَ فِي اِخْوَانِكَ، وَالزَّمْ حَدَّكَ،
وَاعْرِفْ قَدْرَكَ.

مَنْ نَكُونُ نَحْنُ؟!

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ» لِلْمَاوَرَدِيِّ (ص ٥٨).

مَا نَحْنُ فِيْمَنْ سَبَقَنَا إِلَّا كَبَقْلٍ صَغِيرٍ فِي أُصُولٍ نَخْلٍ طُوَالٍ.
مَنْ نَكُونُ؟!

قَسْ نَفْسَكَ بِالْأَيْمَةِ - أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الْعِلْمَ حَقًّا - فَقَسْ نَفْسَكَ بِالْأَيْمَةِ أَمَّا
أَنْ تَقِيَسَ نَفْسَكَ بِفُلَانٍ، فُلَانٌ هَذَا يَحْمِلُ عِلْمًا، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ الْعِلْمَ، وَلَا هُوَ
يَعْرِفُهُ، وَأَنْتَ، وَهُوَ أَجْهَلُ مِنْ بَعْضٍ لَا تَعْرِفَانِ شَيْئًا وَلَا تَدْرِيَانِهِ، وَلَكِنْ هُوَ عِنْدَكَ
عَالِمٌ، وَأَيْمَةٌ، وَإِمَامٌ، وَعَلَامَةٌ.

فَالْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ سَوِيًّا بَيْنَ إِبْدَاءِ عَمَلٍ مَحْبُوبٍ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَتَّى يَكُونَ
فِيهِ قُدْوَةٌ، وَحَتَّى يُنْهَجَ نَهْجُهُ، وَحَتَّى يُسَارَ عَلَى أَثَرِهِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَالْأَلَّا
يُوَافِقَهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّيَاءِ الْمَذْمُومِ، أَنْ يَكُونَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ هَذَا هُوَ
دِينُ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

الصَّحَابَةُ ﷺ كَانُوا أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ الْفَخْرِ بِشَيْءٍ آتَاهُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
إِيَّاهُ، وَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسِ بِمَدْخَلِ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُفْسِدُ عَلَى الْعَبْدِ عَمَلَهُ،
وَيُفْسِدُ عَلَى الْعَبْدِ نِيَّتَهُ، وَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْتِيَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَحَتَّى
يُعْطِيَهُ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

مَاذَا نَعْلَمُ نَحْنُ؟

خَاصَّةً فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي صَارَ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي كِتَابٍ أَوْ تَحْتَ
التُّرَابِ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِمَّا فِي كِتَابٍ، وَإِمَّا تَحْتَ التُّرَابِ، وَلَا

يَهْوَلَنَّ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْأَلْقَابِ فَكُلُّ هَذَا وَهُمْ، وَالْمُحَدَّثُ - وَعُدْ إِلَى تَعْرِيفِهِ
 كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ -: يَحْفَظُ مِئَةَ أَلْفٍ حَدِيثٍ غَيِّبًا يَحْمِلُهَا عَلَى ظَهْرِ قَلْبِهِ، وَهَذِهِ
 الْأَحَادِيثُ الَّتِي يَحْفَظُهَا يَعْرِفُ عِلَلَهَا إِنْ كَانَ فِيهَا مِنْ عِلَّةٍ فِي إِسْنَادٍ أَوْ مَتْنٍ،
 وَيَعْرِفُ الرُّوَاةَ، وَيَأْتِي بِهَا سَرْدًا لَا يَتَتَعَتَعُ، هَذَا هُوَ الْمُحَدَّثُ.

وَأَمَّا مَنْ يُقَالُ لَهُ: مُحَدَّثٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَهُوَ مُحَدَّثُ كِتَابِ الْكُلِّ يُمَكِّنُ أَنْ
 يُطْلَقَ عَلَيْهِ هَذَا الْوَصْفُ مُحَدَّثُ كِتَابٍ فَلَانُ مُحَدَّثُ كِتَابٍ، يَعْنِي اطْوَى الْكِتَابِ
 مِنْ أَمَامِهِ، وَقُلْ لَهُ: قُلْ أَيُّهَا الْمُحَدَّثُ، قُلْ لَنَا حَدِيثَ كَذَا، وَقُلْ لَنَا رَوَايَاتِ هَذَا
 الْحَدِيثِ، وَقُلْ لَنَا مَا كَانَ فِيهِ مِنْ زِيَادَاتِ الثَّقَاتِ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ إِدْرَاجٍ، وَقُلْ لَنَا
 الشَّوَاهِدَ، وَالْمُتَابَعَاتِ مِنْ تَامَّةٍ وَقَاصِرَةٍ، وَقُلْ لَنَا الطُّرُقَ ثُمَّ انْظُرْ لَنَا فِي الْإِسْنَادِ
 فِي كُلِّ حَدِيثٍ تَأْتِي بِهِ، وَخَبَرْنَا عَنْ أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ.

الْأَيْمَةُ كَانُوا يَحْفَظُونَ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي تَرَوْنَهُ فِي كُتُبِهِمْ؛ تَهْذِيبُ الْكَمَالِ لَوْ
 وَضَعْتَهُ مُجَلَّدًا فَوْقَ مُجَلَّدٍ مَا كُنْتُ بِجَوَارِهِ شَيْئًا لَطَالَكِ، وَكَانَ أَطْوَلَ مِنْكَ لَوْ
 جَعَلْتَ تَهْذِيبَ الْكَمَالِ مُجَلَّدًا فَوْقَ مُجَلَّدٍ، وَوَقَفْتَ بِجَوَارِهِ لَكَانَ أَطْوَلَ مِنْكَ
 هَذِهِ الْعَشْرَاتُ مِنْ أُلُوفِ الرِّجَالِ تَجِدُهُمْ مَذْكُورِينَ فِي كِتَابِ تَهْذِيبِ الْكَمَالِ
 لِلْمِزِّي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِحَالِهِ بِمِيلَادِهِ، وَوَفَاتِهِ،
 وَبَيْلَدِهِ بِمَوْلِدِهِ، وَرِحَالَتِهِ، وَشُيُوخِهِ، وَتَلَامِيذِهِ، وَرَوَايَتِهِ عِنْدَ أَصْحَابِ الْكُتُبِ،
 وَمَنْ رَوَى عَنْهُ، وَمَنْ أَخْرَجَ لَهُ ثُمَّ أَقْوَالِ الرِّجَالِ فِيهِ.

كُلُّ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَاوٍ بِحَدِيثِهِ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ مَحْفُوظًا يَحْفَظُونَهُ عَلَى ظَهْرِ قُلُوبِهِمْ رَحْمَةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَفَتَّحُونَ لِلْعِلَلِ الْخَفِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ لَا تَكُونُ عِلَّةً فِي مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ، وَأَهْلُ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ خَفِيَّةً فَهِيَ سَبَبٌ غَامِضٌ خَفِيٌّ يَقْدَحُ فِي صِحَّةِ الْحَدِيثِ مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ السَّلَامَةَ مِنْهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَفِيًّا.

هَذَا إِلْهَامٌ كَمَا قَالُوا فِيهِ فِي عِلْمِ الْعِلَلِ، هُوَ إِلْهَامٌ عِنْدَمَا تَتَأَمَّلُ فِي هَذَا وَهَذَا فِي فَنٍّ وَاحِدٍ إِنَّمَا هُوَ مِنْ فُنُونِ الرِّوَايَةِ لَا مِنْ فُنُونِ الدَّرَايَةِ بَلْهُ مَا يَكُونُ مِنْ عِلْمِ الدَّرَايَةِ اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ مِنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي ثَبَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

هَذَا التَّفَاعُلُ تَفَاعُلُ الْعِلْمِ فِي بَوْتَقَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا اسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالدَّرَرِ الْمَخْفِيَّةِ الَّتِي هِيَ كَاللَّائِي فِي أَصْدَافِهَا فِي أَغْوَارِ تِلْكَ الْبِحَارِ يَغُوصُونَ خَلْفَهَا حَتَّى يُخْرِجُوهَا لِلْأُمَّةِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ.

كُلُّ ذَلِكَ يَأْتِي بِهِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ، قَارِنُ نَفْسِكَ بِهِؤُلَاءِ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى فَلَانٍ، فَلَانٌ هَذَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِمَامٍ عَصَرِهِ أَيُّ عَصَرٍ؟ وَأَيُّ إِمَامٍ؟ الْمُهْمُّ كُنْ سَوِيًّا، وَلَا تَتَكَبَّرْ، وَتَرْتَكِبْ مِنْ أَوَّلِ خُطْوَةٍ، كُنْ سَوِيًّا، كُنْ وَاضِحًا.

عَمَرُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي». هَكَذَا بِوُضُوحٍ.

قَالَ: «وَلَا هَذِهِ يَا عُمَرُ».

قَالَ: «الآن يَا رَسُولَ اللَّهِ».

قَالَ: «الآن يَا عُمَرُ»^(١).

كُنْ وَاضِحًا مَعَ نَفْسِكَ؛ لِأَنَّكَ مَكْشُوفٌ أَمَامَ رَبِّكَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْكَ شَيْءٌ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ نَجْوَى وَمِنْ سِرِّ خَفِيٍّ كُلِّ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يَعْلَمُ دَوَافِعَكَ، وَقَدْ تَخَفَى عَلَيْكَ أَنْتَ لِأَنَّكَ لَا تُحَرِّرُهَا، لِمَاذَا نَتَكَلَّمُ فِي الْعِلْمِ؟ لِمَاذَا نَدْعُو النَّاسَ لِدِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ هَذَا مَقَامٌ تَشَرَّبْتُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

كُلُّ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ آتَاهُ اللَّهُ ذُرْوًا مِنَ الْعَقْلِ يُحِبُّ أَنْ يُوصَفَ بِالْعِلْمِ، وَيَأْنِفُ أَنْ يُوصَفَ بِالْجَهْلِ، وَتَجِدُ الرَّجُلَ الْجَاهِلَ الْجَاهِلَ، وَهُوَ يَعْلَمُ بَيِّقِينَ أَنَّهُ جَاهِلٌ تَرَى الرَّجُلَ إِذَا وَصَفَتْهُ بِالْجَهْلِ حَمَلَ عَلَيْكَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا وَصَفَتْهُ بِهِ حَقٌّ، وَأَنَّهُ جَاهِلٌ بِحَقٍّ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَقْبَلُ مِنْكَ، وَصَفًا لَهُ بِالْجَهْلِ، وَلَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ فِيهِ، وَإِذَا وَصَفَتْ غَيْرَ عَالِمٍ بِالْعِلْمِ تَفَتَّحَتْ مَسَامُ نَفْسِهِ لِمَدْحِكَ، وَتَاهَ بِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ.

النَّاسُ يَعْرِفُونَ قَدْرَ الْعِلْمِ، وَإِنْ عَادُوا أَهْلَهُ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ إِنَّمَا يُعَادِي أَهْلَ الْعِلْمِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْعِلْمِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ دَنَاءَةٌ فِي الطَّبَاعِ، وَلَا يُحَاوِلُونَ تَصْفِيَةً، وَلَا تَهْدِيًّا لِنَفْسِهِمْ، وَلَا تَرْكِيًا بِأَخْذِهَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الْإِيمَانِ، ٣: ٥، رَقْمُ ٦٦٣٢)، مِنْ حَدِيثِ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

أَطْرًا عَلَى مَنَهِجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَهْذِيبِ النُّفُوسِ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ يَتَمَتَّعُ بِدَنَاءَةٍ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْهَا كَانَتْ فِي بَحْرِ مُحِيطٍ لَا تَنْتَنُّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَهْنَأُ لَهُ بَالٌ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِحِذَائِكَ حَتَّى يَجْذِبَكَ إِلَيْهِ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ مُرْتَقِيًا إِلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ رِفْعَةٍ، وَمُسْتَوًى، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَكَ فِي مُسْتَوَاهُ هُوَ، وَأَنْ يَنْزِلَ بِكَ إِلَى الدَّرَكَةِ الْهَابِطَةِ، وَالْحِمَاةِ الْمُتَنِّتَةِ.

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَذَلِكَ فَأَكْثَرُ أَهْلِ الْجَهْلِ إِنَّمَا يُعَادُونَ أَهْلَ الْعِلْمِ لِهَذَا السَّبَبِ، وَأَمَّا التَّعَادِي الَّذِي يَكُونُ، وَالتَّهَارُجُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، فَهَذَا نَبَهَ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمَا فَقَالَ: «الْعُلَمَاءُ أَشَدُّ تَغَايُرًا مِنَ التُّيُوسِ فِي زُرُبِهَا» (١).

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَعْطَانَا الْمَعْنَى مَكْشُوفًا بِأَبْلَغٍ مِنْ هَذَا وَأَجَلٍّ، فَقَالَ ﷺ: «مَا ذُبَّانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زُرْبَةٍ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ بِدِينِهِ» (٢).

الَّذِي يَحْرِصُ عَلَى الْمَالِ يُفْسِدُ حِرْصُهُ عَلَى الْمَالِ دِينَهُ يَتَنَازَلُ، وَيَخْضَعُ، وَيُفْتِي كَمَا قِيلَ لِبَعْضِ مَنْ انْتَمَى إِلَى عِلْمِ الْحَدِيثِ فَقَالَ لَهُ مَنْ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تَضَعَ لِي حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» (٢/ رَقْمُ ٢١٢٣، دَارُ ابْنِ الْجَوَازِيِّ).

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي (الرَّهْدِ، ٤٣، رَقْمُ ٢٣٧٦)، مِنْ حَدِيثِ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْمَشْكَاةِ» (٥١٨١).

الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ الْكَذَّابُ قَالَ لِبَعْضِ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي عَصْرِهِ: احْتَكِمْ لَكَ مَا شِئْتَ، وَضَعْ لِي حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنِّي نَبِيُّ بَعْدَهُ فَمَاذَا تَرَى؟

قَالَ لَهُ الْمُحَدِّثُ: الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ. أَوْ قَالَ لَهُ: لَا يَجُوزُ أَنْ يَكْذِبَ الْمُسْلِمُ، وَلَوْ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ، قَالَ لَهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَا، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ شَدِيدٌ فَاخْتَرِ مَنْ شِئْتَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَنَا آتِيكَ بِهِ، الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ شَدِيدٌ، وَلَكِنْ اخْتَرِ مَنْ شِئْتَ مِنَ الصَّحَابَةِ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ بِالْإِسْنَادِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ إِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ مِنْ ثَقِيفٍ سَيَكُونُ نَبِيًّا بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ جَعَلْتُ لَكَ مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْكَذَّابُ، وَقَالَ يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ، وَمُبِيرٌ فَأَمَّا الْمُبِيرُ الْمُهْلِكُ، فَهُوَ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ الثَّقَفِيُّ، وَأَمَّا الْكَذَّابُ، فَهُوَ هَذَا الرَّجُلُ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ.

أَمَّا التَّغَايُرُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَبَيْنَ طُلَّابِ الْعِلْمِ فَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الْعُلَمَاءُ أَشَدُّ تَغَايُرًا مِنَ الثِّيُوسِ فِي زُرْبِهَا»، وَالنَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الْحِرْصَ عَلَى الْمَالِ يُفْسِدُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ عِلْمَهُ، وَعَلَى الْعَالِمِ مَقْصِدَهُ، بَلْ يُفْسِدُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْعَادِيِّ الَّذِي لَا يَطْلُبُ الْعِلْمَ يُفْسِدُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ، الْحِرْصُ عَلَى طَلَبِ الْمَالِ مُفْسِدٌ لِلْحَيَاةِ.

قَالَ: وَكَذَلِكَ الْحِرْصُ عَلَى الشَّرَفِ يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ الْخَسِيسَةَ بِالْعِلْمِ نَعَمْ الْعِلْمُ يَرْفَعُ الْخَسِيسَةَ، مَعْلُومٌ أَنَّ الْعِلْمَ يَرْفَعُ الْخَسِيسَةَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَوْفَسُ،

وَالْأَوْقَسُ مَنْ دَخَلَتْ رَقَبَتُهُ فِي صَدْرِهِ فَلَا رَقَبَةَ لَهُ، وَكَانَ كَتِفَاهُ كَأَنَّهُمَا زَوْجَانِ فَكَانَ ظَاهِرُهُ مُرْبِعًا، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ لَقَدْ خُلِقْتَ خِلْقَةً مَا أَرَاهَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ فَعَلَيْكَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ فَإِنَّ الْعِلْمَ يَرْفَعُ الْخَسِيسَةَ.

فَطَلَبَهُ فَكَانَ بَعْدُ قَاضِيًا فَكَانَ إِذَا جَلَسَ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ خَصْمٌ يُخَاصِمُ أَوْ شَاهِدٌ يَشْهَدُ إِلَّا ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ مِنْ هَيْبَتِهِ كَالْأَسَدِ فِي لُبْدِهِ، كَالْأَسَدِ فِي بَرَانِيهِ، كَالْأَسَدِ فِي عَرِينِهِ لَا رَقَبَةَ لَهُ، وَكَتِفَاهُ كَأَنَّمَا زَوْجَانِ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ -، وَلَوْ عَصَرْتَهُ مَا عَصَرَتْ إِلَّا عِلْمًا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

نَعَمْ، الْعِلْمُ يَرْفَعُ الْخَسِيسَةَ، وَلَكِنْ أَهَذَا مَقْصِدٌ يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ الْأَوْقَسِ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - كَمَا قَالَ السَّالِفُونَ: طَلَبْنَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَأَبَى الْعِلْمُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ.

نَطْلُبُ الْعِلْمَ لِغَرَضٍ فَاسِدٍ، فَإِذَا تَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ الصَّحِيحَ أَبَى الْعِلْمُ الصَّحِيحُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، فَتَكُونُ الْوَجْهَةُ مُنْحَرِفَةً فَيَأْبَى الْعِلْمُ إِلَّا أَنْ يُقِيمَ الْمَرْءَ الْعَالِمَ عَلَى الْجَادَةِ هَذَا هُوَ الْعِلْمُ الصَّحِيحُ، قَالَ اللَّهُ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ، يُوْرَثُ الْخَشْيَةَ.

مَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَرْتَكِسُونَ فِي الْحَمَاءَةِ!!

نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُحَسِّنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

يَرْتَكِسُ، يَرْفَعُ الْخَسِيسَةَ بِمَا يَطْلُبُ، يُحَصِّلُ الدُّنْيَا بِمَا يَطْلُبُ، يُحَصِّلُ الْأَعْرَاضَ بِمَا يَطْلُبُ، وَيُفْسِدُ عَلَى النَّاسِ أَمْرَهُمْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذِهِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا قَدْ تَكُونُ أَفْضَلَ وَأَعْلَى مِنْ مَصْلَحَةِ الْإِخْفَاءِ، لِهَذَا يُثْنِي اللَّهُ ﷻ عَلَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَإِذَا كَانَ السِّرُّ أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ لِلْقَلْبِ وَأَخْشَعَ وَأَشَدَّ إِنَابَةً إِلَى اللَّهِ أَسْرُوا، وَإِذَا كَانَ فِي الْإِعْلَانِ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ بِظُهُورِ شَرَائِعِهِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ يَقْتَدُونَ بِهَذَا الْفَاعِلِ وَهَذَا الْعَامِلِ أَعْلَنُوهُ.

وَالْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ، كُلُّ مَا كَانَ أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ.

* قُلْتُ: هَذِهِ الْمَرَاتِبُ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ كَالدَّوَائِرِ الثَّلَاثِ: الْإِسْلَامُ أَوْسَعُ، الْإِيمَانُ أَضْيَقُ مِنْهُ، الْإِحْسَانُ أَضْيَقُ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الدَّوَائِرِ الثَّلَاثِ هِيَ دَاخِلُ الْأُخْرَى، فَالدَّائِرَةُ الْوَاسِعَةُ دَائِرَةُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَرْءُ مُسْلِمًا فِي الظَّاهِرِ، وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فَأَوْسَعُ دَائِرَةٍ هِيَ دَائِرَةُ الْإِسْلَامِ، وَفِي دَاخِلِ دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ دَائِرَةُ الْإِيمَانِ، وَأَضْيَقُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ دَائِرَةُ الْإِحْسَانِ.

فَمَنْ وُجِدَ دَاخِلَ الدَّوَائِرِ الثَّلَاثِ مَنْ وُجِدَ دَاخِلَ دَائِرَةِ الْإِحْسَانِ، فَهُوَ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ مُحْسِنٌ، وَإِنْ خَرَجَ مِنَ الدَّائِرَةِ الصَّغْرَى، فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ، وَإِنْ خَرَجَ مِنَ الدَّائِرَةِ الثَّانِيَةِ، فَهُوَ مُسْلِمٌ فِي الظَّاهِرِ، وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمِنْ بَابِ أَوْلَى لَا يَكُونُ مُحْسِنًا.

فَأَهْلُ الْإِحْسَانِ هُمُ الصَّفْوَةُ، وَهُمْ الْخُلَصُّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَرْتَبَةَ الثَّلَاثَةَ سَأَلَ الدَّلِيلَ، قَالَ:
الدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:

.[١٢٨]

وَالْآيَةُ فِيهَا بَيَانُ فَضْلِ الْمُحْسِنِينَ، وَبَيَانُ الْمَعِيَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَكُونُ لِأَهْلِ
الْإِحْسَانِ، وَذَكَرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الَّذِي لَا
يُغْلَبُ.

﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ﴾: يَعْنِي إِلَى الصَّلَاةِ مُتَهَجِّدًا بِلَيْلٍ.

﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾: وَرُكُوعَكَ، وَسُجُودَكَ، وَقِيَامَكَ فِي السَّاجِدِينَ
الْمُصَلِّينَ لِرَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أَيِّ فِي عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، ﴿وَمَا
تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُودًا﴾ مُشَاهِدِينَ لَكُمْ مُرَاقِبِينَ أَعْمَالَكُمْ، ﴿إِذْ تُفَيْضُونَ فِيهِ﴾ يَعْنِي: تَأْخُذُونَ فِي
ذَلِكَ الْعَمَلِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْعُثَيْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جَبْرَائِيلَ الْمَشْهُورُ،
عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا

رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ
مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى
فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ
الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟

قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ
بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟

قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟

قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَيْثُتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَنَاكُمْ يَعْلَمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

* قُلْتُ: وَهَذَا الْحَدِيثُ اشْتَمَلَ عَلَى شَرْحِ جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ، وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَإِخْلَاصِ السَّرَائِرِ، وَالتَّحَفُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ، حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَمَتَشَعِّبَةٌ مِنْهُ، أَي: مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ^(٢).



(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (الْإِيمَانِ، ١: ١، رَقْمُ ٨)، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

(٢) «إِكْمَالُ الْمُعَلِّمِ» لِلْفَاضِي عِيَّاضٍ (١/ ٢٠٤)، «شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» لِلنَّوَوِيِّ (١/ ١٥٨).